# تقديم

عندما طُلب مني الاشتراك ببحث في مؤتمر «المملكة العربية السعودية في مائة عام» كنت حينها، ومنذ فترة ليست قصيرة، أقوم بزيارة جديدة للتاريخ، على حد تعبير الأستاذ محمد حسنين هيكل، زيارة تختلف عن الزيارات المعتادة التي أقوم بها عادة بحكم التخصص في هذا المجال. زيارة تهدف إلى قراءة لا تقتصر على فترة أو مرحلة معينة، و إنما هي شاملة لتاريخ هذه المنطقة في طوله وعرضه إلا أنها تقتصر على جوانب معينة، اعتقد أن لها دوراً مؤثراً في تشكيل الواقع الذي نعيشه اليوم، مع إطلالة على جوانب من تاريخ الأمم التي لها علاقة بشكل ما بهذه المنطقة، وخاصة تاريخ أوربا، الجار اللدود الذي لا يمكن الفكاك من تأثيره كما لا يمكنه الفكاك من التأثر بما يجري في هذه المنطقة.

كنت أحاول في هذه الزيارة قراءة الأحداث قراءة متأنية متأملة تتلمس الأسباب الكامنة أو المؤدية إلى ما وصلت إليه أمتنا العربية، في عصرنا الحاضر من واقع غير سعيد ولا يوحي بمستقبل واعد. أو إن شئت فقل إن هذه الأمة تعيش مأزقاً تاريخياً يبدو أن الأمل في الخروج منه لا يدعو إلى التفاؤل، في زمن يهدد بشكل صارم تخطى أية أمة لا تستطيع مواكبة العصر والمشاركة الفاعلة في منجزاته. وبدون شك إن هذا الوضع لم ينشأ من فراغ وبمحض الصدفة، أو لأسباب طبيعية تتعلق بإنسان (انثروبولوجيا) هذه الأمة وإنما لا شك -في رأيي- أن هناك أسباباً موضوعية يمكن تشخيصها، وقد يكون لتطور الأحداث التاريخية التي مرت بهذه الأمة دور يتضاءل أو يتعاظم في تشكيل هذا الواقع الذي لا يسر.

وكانت الاستجابة لطلب المشاركة ببحث في هذا المؤتمر فرصة لا يمكن

تفويتها. فهذا الرجل (الملك عبدالعزيز) الذي استلهم تاريخ أمته وأدرك بوعي غير عادي المرحلة التي تعيشها هذه الأمة. واستطاع أن يستثير أسباب ومكامن القوة الكامنة وتعامل معها بقدرة عجيبة، يعطي أملاً بأن هذه الأمة، إذا أدركت بوعي مكامن قوتها، وتهيأت الظروف الملائمة للتعبير عنها بالحركة والفعل، قادرة على أن تخرج من مأزقها، وتحتل مكاناً ملائماً لإمكاناتها الهائلة، ومكانتها التي تستحقها.

لهذا عنيت في هذا البحث بإعطاء خلفية تاريخية تعطي لمحات سريعة عن ظروف معينة مرت بها هذه الأمة عبر تطورها التاريخي، ربما تكون مفاتيح لدراسات موسعة ومتعمقة علها تكشف عن الأسباب التي أدت إلى الواقع الذي نعيشه.

ومن جانب آخر فقد كانت الفترة التي شهدت قيام الملك عبدالعزيز بحركته تتسم بتنافس دولي مشحون بشتى الاحتمالات. وقد ألقت جميع الدول الأوروبية الكبرى المعاصرة (ألمانيا، فرنسا، وروسيا بالإضافة إلى بريطانيا) بثقلها في هذه المنطقة في تنافس محموم للسيطرة على مواقع استراتيجية، خاصة في الخليج واستقطاب القوى السياسية المحلية، ولم تكن القوى السياسية المحلية بمعزل عن ما يجري حولها، وكان لابد لها من اتخاذ موقف تجاه ذلك. وكان عبدالعزيز يدرك، ومنذ البدء، هذه الحقيقة وعدم إمكانية تجاهل تأثيرها في تحقيق مشروعه. وقد أدرك بوضوح أن القوة السياسية التي يمكن أن تلعب دوراً فاعلاً سلباً أو إيجاباً تجاه مشروعه، هي بريطانيا العظمى. وعليه فقد بذل محاولات مستمرة لكسبها إلى جانبه إلا أن ذلك لم يجد آذاناً صاغية لأسباب تتضح في ثانيا البحث، إلا بعد قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م، فأصبحت تطلب ما كانت تتجنب الاستجابة له سابقاً.

دأب كثير من المؤلفات عن تاريخ هذه الفترة على إلقاء ظلال من الشك توحي بأن بريطانيا كان لها دور إيجابي في مساعدة الملك عبدالعزيز لتحقيق ما تم إنجازه وخاصة في فترة التأسيس (١٣١٩-١٣٣٨/ ١٩٠٢-١٩٢٠) ولأن هذا الجانب على قدر كبير من الأهمية فقد أوليته أهمية خاصة وتفرغت للاطلاع على معظم الوثائق البريطانية مباشرة (في مكتبة جامعة كمبردج في بريطانيا) لما يزيد على شهر كامل، وخرجت بنتيجة -يبدو لي أنها حاسمة- تؤكد عدم صحة هذا الزعم وأن العكس هو الأقرب إلى الحقيقة. فبريطانيا كانت عقبة، وعقبة كؤود، في طريق إعادة تأسيس الدولة السعودية الجديدة وأخذ مداها المؤهلة لتحقيقه لأسباب موضوعية تتعلق بمصالحها الحيوية في المنطقة وخاصة طرق مواصلاتها إلى الهند.

وأود هنا أن ألفت القارئ إلى أن محور هذا البحث ـ الكتاب ـ هو إبراز تأثير العامل الخارجي، وخاصة البريطاني، كعامل هام وربما حاسم، ليس في التأثير على تطور مراحل توحيد أجزاء المملكة على يد الملك عبدالعزيز فحسب، وإنما أيضاً في تشكيل الخارطة السياسية التي أصبحت عليها المملكة العربية السعودية.

وليس من المبالغة -في رأيي- القول إن العوامل الخارجية وخاصة الدور البريطاني، لعبت دوراً خطيراً في تحديد مصير الدولة السعودية الأولى وتحديد الاتساع الجغرافي للدولة السعودية الثانية. وأي دراسة لتاريخ هذه الدولة السياسي في أدوارها الثلاثة لا تأخذ هذه العوامل بعين الاعتبار يعتورها -في رأيي- نقص خطير ويؤدي إلى نتائج غير دقيقة.

والله يهدي للصواب